عهد من الاستشراق جديد

أكثر إنصافاً، وأنزه غاية

بقلم : عفت الشرقاوى

كتاب يسهل تعليم اللغة العربية لغة العرب، ينشره معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجل الشهيرة، بمدينة مونتريال بكندا

■ ازداد الاقبال على تعلم اللغة العربية بين الأجانب، خلال السنوات الأخيرة بصورة ملحوظة، ويفسر هذا الاقبال بعاملين أساسيين : الأول هو النهضة العربية الجديدة التى يمر بها الوطن العربى الآن في جميع أنحائه، والتى تستلهم فيما تستلهم تراثها الماضي لتبعثه من جديد، وتتلمس فيه قيما ومثلا عالية تحييها لحاضرها المتطور الناهض .

لقد أثارت هذه النهضة المتوثبة أنظار العالم الحديث الى واقع الأمة العربية الحى، فتجدد الاهتمام والمتابعة لأخبارها السياسية والثقافية، وتطلعت الأعين الى مزيد من العلم بتطورها الحضارى، ورغب كثيرون في دراسة لغة هذه الحضارة ليكون اتصالهم بها أوثق وأشد صلة .

هذا هو العامل الأول .

وأما العامل الثانى فهو الاتساع المطرد في دائرة الأبحاث الاستشراقية والتطور الناشيء عن محاولة كثير من المستشرقين المحدثين التخلص من صفتين أساسيتين، صبغتا العديد من أعمال المستشرقين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

أولى هاتين الصفتين هى قصر العناية بدراسة حضارة الاسلام على الجانب الكلاسيكى وحده ، وثانيتهما هى ميل كثير من المستشرقين الى هوى دينى أو عنصرى في تناولهم لحضارة الاسلام .

لقد وجد المستشرق الحديث أن تاريخ الاسلام حلقة متصلة ، وانه لا يمكن فصل حاضره عن ماضيه ، أو فهم أحدهما بدون الآخر ، ووجد ثانيا أنه لا سبيل الى فهم هذه الحضارة ، والرؤية الواعية لأعماقها الاصيلة ، من غير تعاطف انسانى عميق مع صانعيها وأصحابها ، وأن الميل مع الهوى في تناول جوانبها لا يؤدى الا الى نتائج واهية ، تجافي روح البحث العلمى الحق ، كما يتطلبه قارىء القرن العشرين .

تطور النشاط الاستشراقى الى حد كبير خلال العقدين الماضيين من هذا القرن ، وتحول تبشير القرن التاسع عشر الى فلسفة حضارية راقية على يد كثيرين من المستشرقين المحدثين ، وهكذا اجتذب الاستشراق مئات من الطلاب ، وأخرج العديد من الأساتذة الجدد ، وازداد تبعا لذلك الاقبال على اللغة العربية ، اللغة الأم للحضارة الاسلامية .

ازداد الاقبال على تعلم العربية ، وازدادت بذلك المحاولات من أجل اخراج كتاب يناسب الطالب الأجنبى الجديد ، ويجذبه الى هذه اللغة ، ويسهل عليه امر قراءتها وكتابتها . ومن أحدث هذه المحاولات الكتاب الذى ألفه الأستاذان : سلمان العانى ويعقوب شماس تحت عنوان « Phonoloyy and script ob literary arabic » (صوتيات اللغة العربية وكتابتها) ، وقد طبعه معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجل بمونتريال ـ كندا سنة ١٩٦٧ . والكتاب مدخل مبسط الى اللغة العربية: يقدم الحروف في مجموعات متتابعة ذات خصائص صوتية معينة ، يشرحها المؤلفان في دقة وبساطة وعلى أساس من علم الأصوات المقارن . يجعل الكتاب حروف الثاء والتاء والباء ، مثلا ، مجموعته الأولى التى يقدمها للطالب ، بادئا بالوصف الصوتى المقارن لكل حرف منها ، متبعا ذلك بتمرينات صوتية ، يقوم بها الطلبة ، تقليدا لمدرسهم ، أو متابعة لشريط التسجيل الذى أعده المؤلفان لهذا الغرض. ثم يقدم الكتاب بعد ذلك طريقة رسم هذه الحروف الثلاثة في أماكنها المختلفة من الكلمة ، مشيرا بأسهم دقيقة الى حركة القلم أثناء الكتابة ، ثم يعطى أخيرا تمرينات منوعة على كتابة هذه الحروف ، تقليدا ، ثم اصالة ، في قاعة الدرس ، ثم خارجها .

ويمضي الكتاب في تقديم بقية الحروف في مجموعات متتابعة مؤجلا الحروف ذات المخارج الغريبة أو الصعبة على القارىء الغربى الى قرب نهاية الكتاب ، حيث يقدم الغين والعين في مجموعة ، ثم الخاء والحاء والجيم في مجموعته الأخيرة على نفس النمط السابق .

وفي الكتاب ـ بعد تقديم الحروف والتمرين الوافر على قراءتها في كلمات ـ ملحق بالقواعد الأساسية في القراءة ، مثل: لام التعريف ، والحروف الشمسية والقمرية ، وعلامات الاعراب ، والتنوين الخ ...

والكتاب في رأيى مقدمة كاملة لقراءة العربية وكتابتها ، بحيث يستطيع الطالب أن يبدأ بعد ذلك قراءة الجملة البسيطة ، متدرجا فيما بعد الى دراسة

نحو العربية المفصل ، وتحصيل معجمه اللغوى المناسب ، وتدريس هذا الكتاب قد يستغرق شهرين في فصل متوسط الاستعداد، ولكن يخلص الطالب والمدرس من مشكلات قرائية وكتابية كثيرة ، قد تنشأ فيما بعد ، اذا ما قدمت الحروف العربية على نحو آخر ، لا يقوم على منهج صوتى وكتابى مقارن ولا يراعى الامكانيات اللغوية للطالب الغربى .

في رأيى ان هذا الكتاب كسب كبير في تاريخ تدريس اللغة العربية للاجانب ، ولا يعرف هذه الحقيقة الا من خبر تدريس هذه اللغة لهم وعرف طبيعة المشكلات التى تواجه كلا من الطالب والمدرس في هذا الصدد ، أو قارن بينه وبين المحاولات السابقة في هذا المجال ، حيث تبدو اللغة العربية شيئا شاقا ، على الطالب ان يجهد في سبيله، ويتحمل كل ما فيه من عسر .

ومشكلة الكتاب الأساسية — في نظرى — هى أن مؤلفيه أختارا لاخراجه تقديم هذه الحروف مكتوبة بخط اليد ، وقد اعتمدا في ذلك — كما هو واضح — على بعض الناسخين من غير ذوى الموهبة الخطية، فجاءت الكتابة خليطا من خطوط النسخ والرقعة والثلث ، من غير ملاحظة خاصة من المؤلفين تبرر ذلك، أو توضحه. وفي وسع المؤلفين في طبعتهما القادمة أن يعتمدا على ناسخ موهوب أو محترف في اخراج الكتاب ، حتى تكون نماذجه كفيلة برسم الصورة الجميلة لا الصحيحة فحسب .

وبعد ، فانه يبدو أنه أصبح من الضرورى على المسئولين في العالم العربى — بعد أن أصبحت اللغة العربية مادة دراسية في كثير من معاهد الغرب وجامعاته — أن يقدموا يدا لمن يقدم اليهم عقله ، ويكرس لحضارتهم مستقبله . ولقد طالت شكايتنا من تحيز المواطن الغربى ، أو عجزه عن فهم قضيتنا الحضارية بكل آفاقها السياسية والاقتصادية والثقافية . وها نحن أمام باحث ناشيء ، اختار أن يقرأ كلمتنا ، ويفهم لغتنا ، ليكون مؤلف الغد في مجتمعه ، ولعله أقدر على أن يسمعه صوتنا ، وأن يبلغه كلمتنا ، وأن يعرفه بنا حق المعرفة ، فماذا قدمنا له ؟ في رأيى أن سلسلة منظمة من الاعلام العربى، تأخذ في حسبانها معنى التطور ، وتقدر معنى الكلمة ، في مجتمع نشكو من صمت الكلمة العربية فيه ، يجب أن تسعى لكسب هؤلاء الباحثين الناشئين الى جانبنا بكل سبيل . ولعلها تبدأ باعادة طبع هذا الكتاب ، وتوزيعه بسعر مناسب — قد يغطى نفقات طبعه ويزيد — على من يرغبون في تعلم العربية في أنحاء العالم .

تستطيع احدى وزارات التربية والتعليم ، أو الثقافة والاعلام ، في الدول العربية تبنى هذا المشروع البسيط ، ثم اتباع ذلك بنشر الأجزاء التالية من السلسلة التى أعدها المؤلفان للطبع .

وتستطيع ادارة الثقافة بجامعة الدول العربية ايضا أن تقوم بذلك ، فتمد الى الطالب الغربى يد الصداقة ، عسى أن يمد اليها يوما قلب الصديق ، أو عقل المنصف . وهى بلا شك قادرة على اخراج الكتاب في صورة أفضل وأجمل من صورته الحاضرة .

الكتاب نشر في عام ١٩٦٧ ، وثمنه ٢٫٧٥ دولار . ■■

عفت الشرقاوى